سيميائيـــة الـــمكان فـــي روايـــة " ذاكـــرة الجســـد " لأحلام مستغانمي

علي خفيف
ق. اللغة العربية وآدابها
جامعة عنابة

Résumé

Dans cette approche analytique, nous avons démontré comment se transforme la ville (Constantine) en un héros principal, qui occupe tous les espaces, et qui joue le rôle principal dans les actions fictives et réelles du roman.

Puis nous avons étudié les différentes significations du lieu dans le roman , en utilisant les outils de la sémiotique . Après, nous avons étudié le lieu dans le roman , dans sa relation avec le personnage , relation qui représente un courbe très riche de connotations .

l'espace romanesque dans « la mémoire du corps» de Ahlem Mostaghanmi, dans ses différents niveaux : structuraux, mimiques, et esthétiques, reflète une immense littérarité chargée d'intertextualité , d'une langue poétique, et d'actions dramatiques.

Nous avons pu remarquer - pour conclure - le bon contrôle , et l'excellente utilisation de la technique du lieu chez Ahlem Mostaghanmi dans son roman « la mémoire du corps » .

قبـــل البـــدء

جـــاء في رواية ذاكرة الجسد لأحلام مستغانمي : « حينما نفقد حبيبا، نكتـــب قصيدة، وحينما نفقد وطنا نكتب رواية » [1] .. ذاكرة الجسد رواية، ولكنها قد تكون قصيدة شعرية مطولة، يختلف ذلك بقدر ما يكون الربط قويا أو فاترا بين الوطن موضوع الرثاء، والشخصية التي فقدت أحلامها ...

وقـــد كادت قسنطينة أن تتحول إلى بطل رئيسي في الرواية، تشغل كل الوظائف و الأحياز، و تؤلف بين باقي الشخصيات والزمان والأحداث ...

سنوسع الفكرة في هذا العمل لدراسة المكان في الرواية، وما يحمله من شحونات شعرية في علاقته بالشخصيات، وبالزمان ، وبالأحداث .. مركزين

على الدلالات والأبعاد المختلفة التي يهيمن عليها المكان الروائي ، سواء أكانت واقعية مجسمة ، أم تجريدية ذهنية ...

توطئـــة

– المكـــان فـــي العمـــل الروائـــي

كـــان الكـــتاب الكلاســـيكيون يجعلون المكان مجرد حيز مادي تأخذه الـــذات، ولكنه أصبح اليوم يحمل وجها آخر مخيفا ، لا يبصره إلا العقل، ولا يجـــول فـــيه سوى الخيال والذهن : « ففي أسلوب السرد القديم، تبدأ الرواية بوصف ديكور مألوف، وعادي ، سيحدث فيه شيء ما » [2] .

أمـــا في الرواية الجديدة، فيأخذ المكان صورة انزياحية، ذهنية تطبعها فيه الشخصية بكل انفعالاتها، وذلك بعدما ألغى اقتراب لغة النص / الرواية، من لغة النص / القصيدة، استقلالية المكان بأوصافه المحددة، « ليصبح المكان جزءا من التجربة الذاتية التي تحمله معها في لا محدوديتها [3].

.. كـــل مـــن المكان والشخصية ليس بإمكانه الاستغناء عن الآخر، فالمكـــان في الرواية ليس مجرد إطار للأحداث ، وإنما هو عنصر حي وفاعل في الأحداث والشخصيات ، وهو حدث، وجزء من الشخصيات المحورية ، وهو البطل المحوري على الإطلاق » [4] .

تماما كما كادت قسنطينة أن تتحول إلى بطل رئيسي محوري في رواية ذاكـــرة الجســـد ، يحمـــل الكـــثير من الانزياحات، و الإيحاءات ، و البنى، والشـــحونات .. يميت بإشعاعه كل أبطال الرواية أو يحييهم .. مما يدفع القراء إلى إنمـــاء طاقاته الإبداعية لتأويل مختلف أبعاد المكان الدلالية، وتبديد أوصافه الضـــبابية ، ومغلقاتـــه الماورائية و الانزياحية، « إذ تصاغ هندسة الأمكنة، ومعماريتها من قبل الإنسان ، وكأن الإنسان بفعله، ومشاعره ، هو الذي يبني ويشـــكل المكـــان .. والحرية هي التي تهب الإنسان قوة بناء معمارية المكان،

فيصـبح المكان ملك الإنسان ، والخاضع لإرادته، فالإنسان في الحرية هو سيد المكان » (5) .

ولذلـك يخضع الإنسان المكان لسلطته، ليحقق أبعادا إشارية للأمكنة في الفضاء الروائي، ليجد القارئ المتلقي بدوره حرية مذهلة، تحفزه على تأويل الانزياحات المكانية ..

- دلالـة المكـان فـي روايـة " ذاكـرة الجسـد "

قسنطينة / أحلام ⟷ باريس / كاترين

يمثل الطرف الأول من المعادلة بالنسبة للبطل الرئيسي خالد ، الذاكرة ، بينما يمثل الطرف الثاني الواقع .

في ضوء هذه الثنائية ، سنتابع علاقة المكان بتطور الشخصية في أحلامها وآمالها ، نكساتها وانجراحاتها ، المصنفة على الإيقاع التالي :

الوطن / المرأة ⟷ المنفى / الأنثى

والـتي يمكـن أن ننحت من خصوباتها التوالدات التي تتهاطل في شكل متوالية كما يلي

ذاكرة	⟷	الجسد
قسنطينة	⟷	باريس
الوطن	⟷	المنفى
الحلم	⟷	الحقيقة
الذاكرة	⟷	الواقع
الحب	⟷	الجنس
المرأة	⟷	الأنثى
أحلام	⟷	كاترين
الثقاف	⟷	السياسة
الجزائر	⟷	فرنسا

ولكن أي طرفي الثنائية الأطغى ... والأكثر هيمنة ؟ ...

فكـــلمة " ذاكرة " وردت مضافة ، تابعة، بصيغة المؤنث، أما كلمة " الجسد " فوردت معرفة، مضاف إليها ، متبوعة، بصيغة المذكر ..

وهل للنكرة سلطة في ظل سلطة المعرفة ؟

أم هل للمؤنث سلطة في ظل سلطة المذكر ؟

ولذلـــك ، نجـــد " كاترين " على الرغم من أنها شخصية عابرة، تحظى بحصة الأسد ، فتعطى إليها كل لوحات خالد / ذاكرته، .. أما " أحلام " التي أسماها خالد بوصية من قائده سي الطاهر، فليست سوى أمانة معنوية، تماما مثلما أن الوطن أمانة الشهداء، .. ومثلما بقي أبناء حسان - أخو خالد - الستة أمانة في عـــنقه، ليكون قدر المثقف أنه مؤهل لتحمل الأمانة في كل وقت، في واقع لا يصون الأمانات ! ..

ونجد باريس تستأثر بإعجاب أحلام بكل ما تمثله من حضارة الغرب، وثقافتها ، وذوقها، في الحين الذي يدفعها فيه كل شيء في قسنطينة إلى الضجر، ويأخذ المكان هما حيزا مذهلا، يسمو إلى التجريد والذهنية أكثر من لجوئه إلى الإيهام بالواقع ...

إذ يأخذ المكان / قسنطينة صورة لحلم خيالي، وبعدا أنثويا مذهلا أيضا، وكأن خـــالد يهيم بأم فقدها ، ويجدها للمرة الثانية / الوطن بكل ملامحها النفسية ، والثقافية، والاجتماعية والعقدية، والسياسية ...

لقد لعبت الشخصية الدور الفعال في تكوين المكان وخلقه من جديد في الرواية، إذ كانت شخصية البطل هي المهيمنة على أكبر مساحات المكان، كما نجـــد قسنطينة هي المكان الغالب على الرواية وعلى الأحداث، وتنحت أحلام مستغانمي شخصيات ثانوية لتساعد البطل على اقتحام الأماكن المغلقة .. فتبدو شخصـــيات الـــرواية دائمـــة الحركة والسفر عبر الأمكنة تبحث عن الراحة، والنجاح، والكسب ، والاستقرار ..

وتعـــد " أنسنة " المكان بدل " تشيئه " منبعا ثريا للإضفاء على المكان جمالـــية وشـــعرية خارقة، لم تعطها له هندسته ولا معماريته، ناهيك عن بعده الأنثوي المذهل، حيث يفقد خالد أمه مصدر الدفء، والعطف، والحنان الضائع .. وفجـــأة يبصر صورة أمه بصورة وطن جريح يتخبط بقبضة مستبدّ يشبه إلى درجة قصوى أباه القاسي على أمه، فيطمح إلى تحقيق ما عجز عنه تجاه أمه التي ماتـــت ضحية قسوة أبيه واستهتاره ، وإهماله وعبثه بالمسؤولية، فيرفع شعار " الوطـــن هـــو الأم، ولن نكون أحرارا إلا بحرية الوطن الأم "، وتبلغ الشعرية ذروتهـــا حينما تبلغ الدرامية ذروتها أيضا، حينما يتحكم في الوطن من لا يقل قســـوة عـــن أبيه، ولا عبثا واستهتارا، فتدنس الطهارة وبراءة الأنوثة، في حمى الشهوة ، والاستهتار الشبقي ..

أول محطـــة يمر لها البطل خالد هي " تونس " ، مكان غيّر مجرى حياته. فالـــبطل عـــندما هاجر إلى تونس كان يبحث عن العلاج، عن الحياة، إلا أن المكان الجديد / تونس يحرر الشخصية من الموت الذي كان يلاحقها، ويقيدها من جديد بحملها لذاكرتها على الجسد. إذن، فقد يحمل المكان شحنات للحياة، ويحمـــل أخـــرى للحزن، والألم، والشقاء. في آن واحد، لتبدأ رحلة التناقض والحيرة والتمزق : « كنت أعيش في تونس ابنا لذلك الوطن، وغريبا في الوقت نفسه ، حرا ومقيدا في الوقت نفسه، سعيدا وتعيسا في الوقت نفســـه .. »[6]

بعد تونس ، ينتقل البطل إلى باريس، حيث يدرس فنون الرسم، ويتقنها ليصـــبح فنانا مشهورا، وتمنحه مدينة الملائكة والشياطين أجزل العطاء ، نجاحا وشهرة، وحرية كما قال له أخوه حسان ذات يوم : « صح عليك يا خالد ، أنت تعيش بعيدا عن الهموم في حيك الراقي بباريس » [7] .

إلا أن الانتكاس يبدأ من جديد، إذ يأخذ منه المكان / باريس شيئا ثمينا، إنـــه الوطن / الذاكرة « .. ها أنذا اليوم في غربة أخرى، وبحزن آخر ، وبقهر

آخر » [8]، مما يوحي لنا بتناقض باريس، وقسوتها على بعض الشخصيات، من مثل خالد، وزياد الذي يقدم إليها من أجل هدف ثوري، حيث : « كان حتى عندما يجلس على كرسي يبدو جالسا على حقائبه، لم يكن يوما مرتاحا حيث كـــان، وكأن المدة التي يسكنهـــا محطات ينتظر فيهـــا قطـــارا لا يدري متى يأتي ... » [9].

وتـــبدو باريس في المقابل محجا للنجاح والكسب لبعض الشخصيات، مثل سي الشريف وسي مصطفى اللذين حجّا إليها من أجل الصفقات ..

– دالـــة الشخصيـــة والمكـــان فـــي ذاكـــرة الجســـــد

إذا أردنا أن نمثل دالة (une fonction) لعلاقة المكان بالشخصية في معلم ذي بعديـــن ، يمـــثل محور السينات خالد ، ويمثل محور العينات المكان ، فإننا نحصل على مستوى ملؤه التناقض والحيرة ، والانجراح ، والازدواجية ، والقلق، كما يلي :

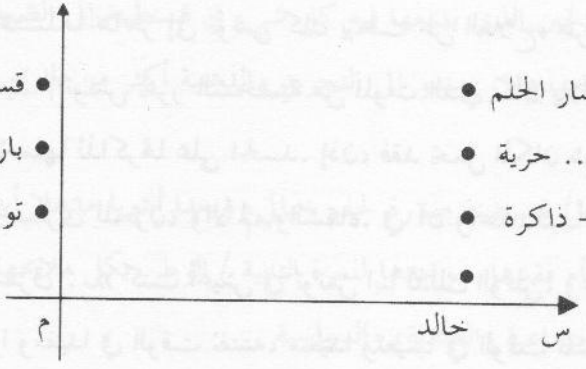

أمـــا إذا جسدنا علاقة المكان بالشخصية في معلم ذي ثلاثة أبعاد (03 dimensions)، يمـــثل محور السينات خالد ، ويمثل محور العينات المكان، وبينما يمـــثل محور الصادات أحلام، فإننا نحصل على فضاء مغاير تماما ، يمتزج بالحلم، والمثل ، والرغبة ، والانكسار .. كما يلي :

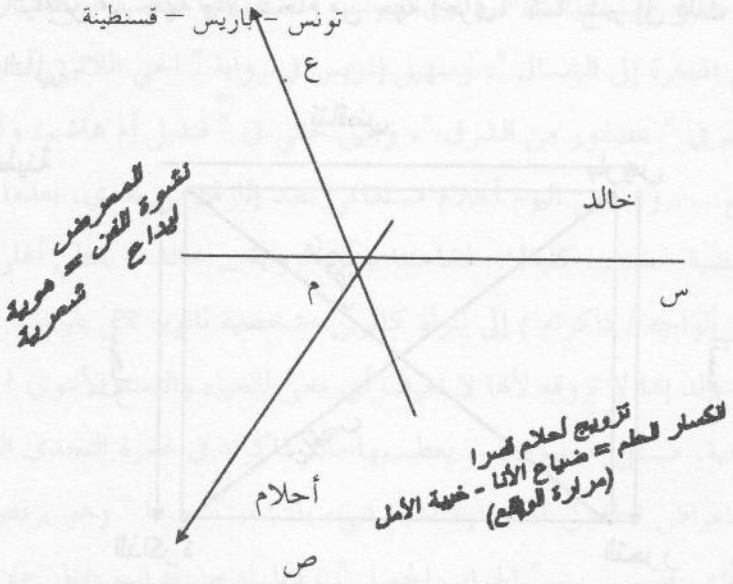

بحيـــث يمكـــن تبسيـــط العلاقـــة كالتالـــــي :

تونس	باريس	قسنطينة
تعرف على أحلام	تعرف على أحلام	حضر حفل زفافها
حين ولادتها	في المعرض	زواجها = فقدان
أعطاها اسما = هوية	أعطاها فكرا = هوية	= انكسار
ولادة = حياة	إبداع (فن) = حياة	
= بعث	= بعث	

إلا أن قسنطينة وباريس هما المكانان اللذان يمثلان طرفي النقيض، ويعبران عـــن التناقض من جهة والانسجام من جهة أخرى، كما يشير إلى ذلك الرسم البياني التالي:

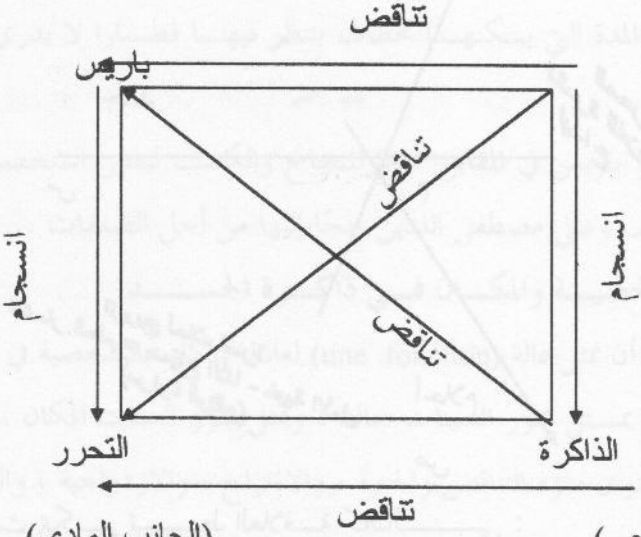

تتضح العلاقة أكثر إذا أضفنا إلى المعادلة عنصرا آخر، متمثلا في شخصية " كاترين " لتغذي الانشطار النفسي لدى البطل خالد، وتعطي النموذج التالي:

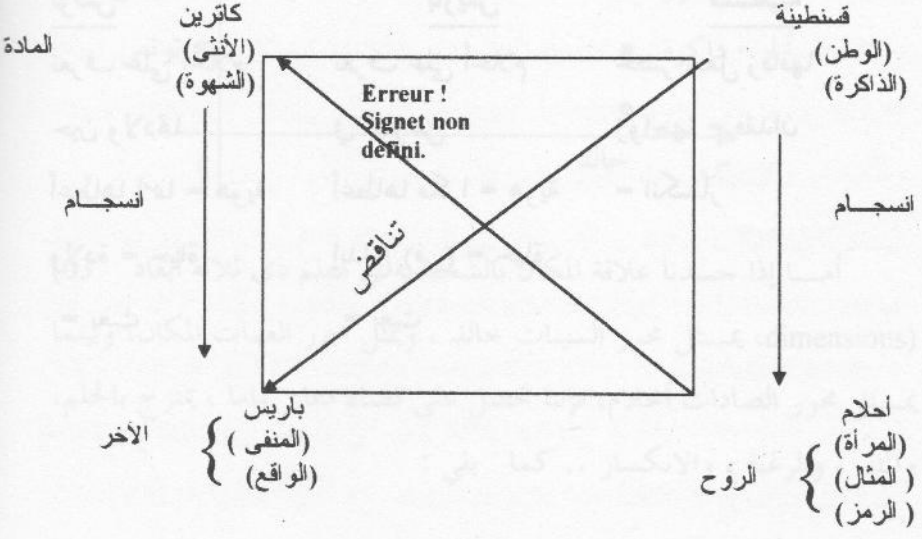

ومـــن هنا نجد أنفسنا من جديد أمام معضلة الأنا والآخر، التي لـــمَّا تزل بعد دون حـــلّ مقـــنع لدى الروائيين العرب، منذ طرحها الطيب صالح في رواية " موسم الهجرة إلى الشمال "، وسهيل إدريس في رواية " الحي اللاتيني "، وتوفيق الحكيم في " عصفور من الشرق "، ويحيى حقي في " قنديل أم هاشم، وآخرون غيرهم ... وها هي اليوم أحلام مستغانمي تعيد إثارتها من جدي، بعدما توهمنا أن القضية حسمت كلية! .. لتفاجئنا ببطل الرواية ـ خالد - يعطي أغلى شيء لديه (ألواحه / ذاكرته) إلى المرأة كاترين، شخصية ثانوية تمثل باريس، ويقول عنها خالد إنها لا تروقه لأنها لا تعرف أي معنى للحياء والتمنع الأنثوي ! .. إنها شـــبقية، مـــثل حـــيوان! .. يعطـــيهاخالد ذاكرته في غمرة التحدي العابث، والاستعراض الطفولي المستهتر، أشبه شيء بانتشاء " زوربا " وهو يرقص على مـــا أسمـــاه بـــ " الخراب الجميل "، ويا له من خراب جميل حين نرهن الذاكرة / الوطن ، .. لمن يمنحنا الشهوة والشبق ! ..

فضـــاء المكـــان (قسنطينـــة) فـــي ذاكـــرة الجســـــد

« ســـلاما أيتها المدينة التي تعيش وسط ثالوثها المحرم: الدين، السياسة، الجـــنس » [10] تحمـــل قسنطينة في طياتها تناقضا متوهجا، وصراحة لا تكلف فيها، تلتزم بعباداتها، وفي الوقت نفسه تعبث بمسؤولياتها، وتهمل مثقفيها ... في قسنطينة، يطبع الإنسان الفضاء المكاني بعبثه، فيجمع بين الشيء ونقيضه، يـــرتاد المســـاجد، ليرتاد الحانات بعدها، فكأنه يختزل أفعاله كلها ليحيلها إلى الصـــفر .. وبذلـــك يستوي الجد مع اللعب، واللهو مع اللذة، فتعلو العبثية، ويهيمن كل شيء، ما عدا التفكير والعقل والثقافة:

« ها نحن بلا أفكار، نبحث عن قدرنا بين الحانات والمساجد » [11]

يتكثف الفضاء في رواية " ذاكرة الجسد "، إن على المستوى الجغرافي، أو على المســـتوى النصـــي، أو على المستوى الدلالي، أو حتى على مستوى الفضاء /

المنظور، للإحالة على المدينة / المجتمع، أو الدين، أو الثقافة، أو السياسة بشكل عبثي ساخر وناقم، للتعبير عن التناقض، وغياب الاعتدال، والفقر الفكري والثقافي، فلا توجد مناطق أخرى غير هاتين المنطقتين: لا توجد منطقة وسطى بين الجنة والنار! .. « البلاد متخذة ، وانتموا واحد لاتي إيصلي، و واحد لاتي يسكر » [12].

ذلك أن الالتزام المتطرف، أو الانحراف المتطرف كلاهما شكل من أشكال التهميش الاجتماعي، مارسهما السياسي على المثقف في المدينة .. ويتخذ المثقف الصور الأكثر سلبية حينما يهرب من واقعه، و ليعتكف بالمساجد، أو يهرب إلى الحانات ..

حينها يتراجع دوره إلى الصفوف الخلفية لا محالة : « .. هذه المدينة التي تدخل المخبرين، وأصحاب الأكتاف العريضة، والأيدي القذرة من أبوابها الشرفية، وتدخلني مع طوابير الغرباء، وتجار الشنطة، و البؤساء .. » [13].

في هذه الأثناء، لا يكون بوسع المثقف إلا أن يحاول الهروب من جلده، كما أراد أن يفعل حسان أخو خالد : « أنا لا أريد أكثر من الهروب من التعليم، وأن أستلم وظيفة محترمة في أي مؤسسة » [14].

أو كما فعل ناصر أخو أحلام، حينما رفض المنحة إلى الخارج لمتابعة دراسته، واستلم بدلها شاحنة ليمارس التجارة، ويكون أكثر المثقفين موضوعية، واتصافا بالعقلية العملية ..

أو كما فعل خالد، حينما اختار أن يقتصر فنه على رسم جسور قسنطينة التي لا تعبر إلا على الاهتزاز، والانقطاع في الفضاء، ولا تصلح إلا أداة لينتحر من فوقها المثقفون! ..

خاتـــمـــة

نخلـــص في هـــذه المقاربة التي تركزت على دلالة الأمكنة، التي أسدلت الســـتار بدورها على كل أبطال الرواية لتصبح هي البطل الإشكالي إلى النتائج التالية :

1 – كـــادت قســـنطينة أن تتحول إلى البطل الرئيسي للرواية، حيث عمدت الروائية إلى الإيهام بواقعية الرواية، كما أسست للمكان صورة أخرى تخييلية، وتجريدية تمنح للقارئ مجالا أرحب للدراسة التأويلية.

2 – تبعث الشخصيات الحياة في المكان، فيأخذ حالاتها النفسية، ويمتزج معها بشكل تفاعلي مذهل، فتكون النتيجة الهائلة: " أنسنة المكان ".

3 – يأخذ المكان بعدا أنثويا مذهلا، ويأخذ كل خصائص المرأة العربية، في مأساويتها، وانكسار حلمها، وتبعيتها للرجل المستهتر بمسؤولياته. كما يأخذ كل ما فيها من صفات الشعرية والجمالية.

4 – تعكـــس الـــرواية أزمة الاستقرار في المكان، حيث تصور لنا أزمة المـــثقف العربي، الذي يظل معلقا بين الشرق والغرب كعلامة استفهام كبرى؛ فالراوي / الكاتبة تبحث عن مكان يلائمها كمثقفة، لم تجده في باريس، كما لم تجده في قسنطينة.

- الهوامـــش والإحـــالات

[1] - أحـــلام مستغانمي، ذاكرة الجسد (رواية)، دار الآداب بيروت 1999، ط 11، ص 202.

[2] - د . حمـــيد لحميداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، بيروت 1991، ص 68.

[3] - نبيلة إبراهيم، فن القص بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر، المقدمة.

[4] - صـــالح ولعـــة، بناء المكان ودلالته في رواية مدن الملح، رسالة ماجستير، جامعة عنابة، مخطوط، ص 158

[5] - شـــاكر النابلسي، جماليات المكان في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ، ط 1 ، 1994 ، ص 377 .

[6] - ذاكرة الجسد، ص 68 .

[7] - المصدر نفسه، ص 439.

[8] - المصدر نفسه، ص 72.

[9] - المصدر نفسه، ص 233.

[10] - المصدر نفسه، ص 400.

[11] - المصدر نفسه، ص. ن.

[12] - المصدر نفسه، ص 410.

[13] - المصدر نفسه، ص 369

[14] - المصدر نفسه، ص 303.